... ولقد تقطع من شبابك وانقضى ... ما ليس أعلمه إليك بآيب ...
... تبغي من الدنيا الكثير وإنما ... يكفيك منها مثل زاد الراكب ...
وقال مالك بن أنس بلغني أن عيسى عليه السلام انتهى إلى قرية قد خربت
حصونها وجفت أنهارها فنادى يا خراب أين أهلك فلم يجبه أحد ثم نادى
ثلاثا فنودي يا عدو الله أين أهلك تضمنتهم الأرض وعادت أعمالهم قلائد
في رقابهم إلى يوم القيامة عيسى بن مريم فجد وقال مالك سئلت امرأة من
بقية عاد فقيل لها هذه فقيل أي عذاب الله تعالى أشد فقالت كل عذاب الله
شديد ورحمة على ليلة لا ريح فيها ولقد رأيت العير تحملها الريح بين السماء
والأرض وقال مجاهد كان طعام يحيى بن زكرياء عليهما السلام العشب وإنه
كان ليبكي من خشية الله تعالى طويلا وكان القار على عينيه لحرقه ولقد كان
الدمع اتخذ مجرا في وجهه ومر بعض الملوك بسقراط الحكيم وهو نائم
فركله برجله وقال قم فقام غير مرتاع منه فقال له الملك ألا تعرفني قال لا
ولكني أرى فيك طبع الدواب لأنها تركل بأرجلها فغضب وقال أتقول
هذا لي وأنت عبدي فقال له سقراط بل أنت عبد عبدي فقال وكيف ذلك قال
لأن شهواتك ملكتك وأنا ملكت الشهوات فقال فأنا الملك قال وأنا الملك ابن
الساحة الأملاك أملك من البلاد كذا وكذا ومن الرجال كذا وكذا ومن الأموال كذا وكذا
قال إن كنت تفخر علي بما ليس من جنسك وإنما سبيلك أن تفخر علي من نفسك ولكن تعال فنخلع ثيابنا
وننزل معا في هذا النهر ونتكلم فيتبين الفاضل من المفضول لا تصور الملك بالله وهذا
أنا أهواك ابتداء ام الحيش عقلي وبليت نفسي به وقطع ثيابا وأقليني وما زال من أنكالي حتى تبرأ وهو في
التراب وذلك أني كنت يوما بالعراق وأنا أشرب فقال صاحبي وكان له عقل وفلان لعلها هذا
الكوز الذي تشرب منه قد كان إنسانا من الدهر ثم مات فصار ترابا فلا تنف للفخار أن أخذ تراب
القبر فيبني خزفا وشوي بالنار فلا تعجب كوزا كما ترى وصار آنية تستقذر بعد ما كان يشرب
صوريا يأكل ويشرب فإذا الذي في العمر الجانب فإن الإنسان إذا مات عاد ترابا كما كان في
النشأة الأولى ثم قد يتفقوا أن يجبل ويعجن بالماء ترابا فيصنع منه آنية تمتهن في البيوت
أو لبنة تبنى في الجدار أو تبنى في الجدار فتوطأ بالأقدام وقد يجوز أن يقع في عين فيه شجرة
يستقبل تراب الإنسان شجرة ويبصر أو رافها ترعاها البهائم ويأكل الإنسان ثمرتها فيغتذي منه
لحمه

لحمه وينشي منها عظمه فيها كانت نطفة ثم يعود في بطن أمه كان جنينا فقد في بطن
المرحاضة أو نحر ايبنغ بالعراء ونجوز أن يحفر قبره أن تسفي الرياح ترابه فتتبع واجزاؤه في بطون
الأودية وره ومن الجبال فليس في هذا الطائع الأهل العقول وصيث النجوم وضع اللذات وطالب عشى
معلا رقت المخلق والمال وهي أن الأوطان والأنس بالمخصوص حضريا في أمر الله تعلى فليس في هذا أمل
صغر الدنيا وحقر الملك عنده من عظمه والمال عنده من جمعه فليس في هذا ما يزهد في اللذات ويسلي عنه
الشهوات وقال كم من مستقبل يوما لا يستدركه ومنتظر غدا فليس من أجله أنكم لو أبصرتم الأجل ومسيره
لأبغضتم الأمل وغروره ولما بنى المأمون بن ذي النون وكان من ملوك الأندلس بناء وأنفق
فيه بيوت الأموال وجاء على أكمل بناء في الأرض وكان من عجائبه أن صنع فيه بركة كأنها بحيرة
وبنى في وسطها قبة وسيق الماء إلى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون وكان الماء ينزل من أعلا
القبة حواليها محيطا بها متصلا بعضه ببعض وكانت في غلالة من ماء سكبا لا يفتر والمأمون
قاعد فيها فبينما هو قائم إذ سمع منشدا ينشد بناء الخالع بن زواني فقال وفيها لو علمت قليل
لقد كان في ظل الأراك كفاية لمن كل يوم يقتضيه رحيل قال فلم يلبث بعدها إلا يسيرا وتوفي
ووجد مكتوبا على قصر قد باد أهله وأقفرت منازله أبيات هذه منازل أقوام عهدتهم
في خفض عيش نعيم ماله خطر صاحت بهم نائبات الدهر فانقلبوا إلى القبور فلا عين ولا أثر
وللطاحب ولقد مررت على ديارهم وطلولها بيد البلا نهب فوقفت حتى ضج من لعب نضوي
وضج بعدي الركب وتلفتت عيني فمذ خفيت عنها الطلول تلفت القلب ولو قيل للدنيا
صفي نفسك ما عدت هذا البيت وروي أن الحجاج قال في خطبته أيها الناس إنما بقي
من الدنيا أشبه بما مضى من الماء بالماء فوالله ما أعطيت من الدنيا بجماعة هذه ما قبلت
فيه ما أسى على ما بقي منها وروي أن النبيء صلى الله عليه وسلم ضرب مثلا للدنيا ولابن آدم
عند الموت كمثل رجل له ثلاثة أخلاء فلما حضره الموت قال لأحدهم قد كنت لي خلا مكرما وقد
حضرني من أمر الله ما ترى فماذا عندك فيقول هذا أمر الله غلبني عليك لا أستطيع أن
أنفس عليك ولا أكشف كربك ولكن ها أنا ذا أبين يديك فخذ مني زادا ينفعك ثم يقول
للثاني قد كنت عندي أحب الثلاثة وقد نزل بي من أمر الله ما ترى فماذا عندك فيقول هذا الأمر
أمر الله غلبني عليك ولا أقدر أن أنفس كربك ولكن سأقوم عليك في مرضك فإذا مت
أدفئت غسلك وجودت كسوتك وسترت جسدك وقال للثالث مثل ذلك قد كنت
أهون الثلاثة علي فماذا عندك قال إني قرينك وحليفك في الدنيا والآخرة وأدخل معك
قبرك إذا دخلته ولا أخرج منه ولا أفارقك أبدا فقال النبيء صلى الله عليه وسلم الأول ماله والثاني

١٦

Copyright © King Saud University